د/ مصطفى الفقى
الكاتب والمفكر السياسى، مساعد أول وزير الخارجية الأسبق

العـــرب .. والحرب الروسيـــة-الأوكرانيـــة

مقدمـة :

شَهدت الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ونهايتها عام ١٩١٨ بداية ميلاد أيديولوجيات جديـدة تعتمـد على الفكر المادى فـى نظرياته الحديثـة وأخُص تحديـدًا أيديولوجيتين، الأولى هى (الماركسـية الشـيوعية) من خلال الآباء المؤسسـين بمن فيهم كارل ماركس صاحب كتاب رأس المـال وفلاديميـر لينيـن الذى شـيَّد أركان الدولة الشـيوعية حتى حملت اسـم الاتحاد السـوفيتى قبيل بدايات حكم سـتالين (جزار الأقليات) داخل المجموعة السوفيتية، وفى الوقت نفسه انبرى أدولف هتلر على الجانب الآخر ليضـع إطارًا محكمًا منضـبطًا للأيديولوجية الثانية، ويرفع شـعارًا قوميًا متطرفًا ينادى بسـمو العرق الألمانى وسـيادة (الدم الآرى) على ما عداه وفى خلفيته هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وضرورة الثأر لها مدعيًا أن اليهود كانوا من أسباب هزيمته.

القصـد من هـذه المقدمة التاريخيـة لفت النظر إلـى أن ميـلاد الأيديولوجيـات والقوميـات المعاصرة قـد ازدهر فى وقت واحد بُعَيْد انتهـاء الحرب العالمية الأولـى باعتبارهـا أول حـرب كونيـة عرفهـا الإنسـان المعاصـر، وقد أدى هذا الأمر إلـى انقسام أيديولوجى فـى أوروبـا وخارجهـا وأصبحنا أمام اختـلاف واضح بيـن النظم السياسية الحاكمة، إلـى أن جاءت الحرب العالميـة الثانية لكى تبـرز دور الحلفاء وتنتهى بتراجع دول المحور والنهاية المعروفة لأدولف هتلر وموسولينى (الدوتشـى) فـى إيطاليـا، وبذلـك لاحظنـا أن هناك سلسـلة متصـلة من الصـعود والهبوط لا نكاد نجد لها نظيـرًا فى فتـرات أخرى مـن تاريخ الجنس البشـرى، ولذلـك فإن الأيديولوجية والقومية يلتقيان حول مفهوم المعتقَد الراسـخ بكل آثـاره العميقـة وتداعياته القوية لأن كليهمـا يمثل فى حد ذاته عقيدة ثابتة وفكرًا دفينًا، ولعلنا نرصد هنا الملاحظات التالية:

أولًا : أن القوميـة تعبيـر عـن تجمـع إنسـانى حول شـعور بالمشـترَك الثقافى، ولقد جاء فى الذكر الحكيم قولـه تعالى: ﴿ يَـا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُـمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَاكُـمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾، وهذا النَص القرآنى يُشـير فـى دلالَـة واضـحة إلَـى انتفـاء التعارض بيـن الأديان والأوطان ويؤكد أن التشـعيب - أى ميلاد شعوب مختلفة - يشـير فى دلالة واضـحة إلـى أن القومية فـى معناها ومفهومها كيان بشرى ضخم يقوم على الانتماء والولاء، ولو أخذنـا مفهوم القوميـة العربية كمثال فسـوف نجد

أنه قد ولد فى أحضان الشام الكبير منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان والتطلع إلى تأسيس دولة غايتها الحكم والقيادة ولكن جوهرها العقيدة، فالقومية وعاء إنسانى رحب يحتوى أجناسًا مختلفة تنصهر فى بوتقة القومية دون عنصرية أو تعصب بغير اعتماد على أجناس بعينها أو أفكار بذاتها، فتعريف العربىُّ لدينا هو أنه كل من تكون العربية لغته الأولى بغض النظر عن المعتقد الدينى أو المذهبى، ودون اعتبار لجنس أو لون أو مذهب فكرى، وهنا يختلف مفهوم القومية فى دلالته الواضحة عن مفهوم الأيديولوجية فى نظرته المحددة فقد تكون القومية مشترَكة ولكن الأيديولوجية متناقضة، كما أنه يمكن أن يحدث العكس فتكون الأيديولوجية واحدة بينما ينضوى تحت لوائها تجمعات بشرية تجمعها عناصر مشتركة وعوامل مستقرة تعتمد فى معظمها على البعد الثقافى، ولذلك فإننى ممن يعتقدون أن أدق تعبير للقومية هو ارتباط الإنسان بجماعته البشرية، أى أن الوطن فى حد ذاته هو واحد من مظاهر التوحد البشرى، ولا خلاف على الإطلاق بين الأديان فى هذا الشأن ولا يتعارض مفهوم الوطنية كأحد أركان القومية مع هذا المعنى، وحتى الإسلام الحنيف الذى تحدَّث كتابه المقدس عن مفهوم الأمة هو نفسه ذلك الدين العظيم الذى نظر نبيه – صلى الله عليه وسلم – إلى مكة وهو يبرحها فى هجرة مبكرة إلى يثرب فقال مخاطبًا مدينته المفضلة مكة المكرمة: (والله إنك أحب بلاد الله إلىَّ ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت)، وهذا المعنى يُؤصِّل مفهوم ارتباط الإنسان بالوطن ويجسد معنى القومية فى أوضح صورها ولو على نموذج مصغر لمفهوم الأمة بعد ذلك.

ثانيًا: أن الأيديولوجية يمكن أن تكون غِطاءً دينيًا فى قليل من الأحيان ولكنها غطاء سياسى فى معظم الأحيان، ولو تأملنا أوضاع الاتحاد السوفيتى السابق لوجدنا أن غطاء الدولة الشيوعية كان يظلل الجمهوريات المختلفة وقد تكونت من قوميات متباينة، ولكن الأيديولوجية الفكرية والعقيدة السياسية كانت هى الغطاء الواسع لكل أطراف الدولة الكبرى مهما تكن عوامل الاختلاف ومصادر النشأة، ولعل الصراع الأوكرانى – الروسى يوضح لنا كيف أن تفكك الاتحاد السوفيتى الكبير قد أفرز كيانات وصلت العلاقة بينها إلى حد الحرب المسلحة والمعارك الدامية كما نشهدها اليوم، لذلك فإن الأيديولوجية ذات الطابع السياسى لا تحمى أطرافها من أسباب الاختلاف الكامن وعوامل الصراع الخفى، بينما التوحُّد القومى يجُبُّ ذلك ويعطى انطباعًا مؤكدًا لأنه يعنى الدماء المشتركة التى تجرى فى عروق وإثنيات جميع الأطراف، فالقومية وعاء يحمى أطرافه بحكم رابطة التوحُّد إلى جانب المشترَك الثقافى الذى يجمع بوتقة الوجدان الواحد ويصنع الإحساس المتبادَل فى ظل القومية الواحدة، ولننظر إلى عالمنا العربى الذى يموج باختلافات عديدة وتباينُات فى الآراء والمواقف أمام العديد من المشكلات، ولكنه يظل فى النهاية محتفظًا بالحد الأدنى من أسباب التوحد رافضًا عوامل الاختلاف متمسكًا بالجذور العميقة للقومية العربية وتأثيرها القوى فى المشرق والمغرب على حد السواء.

ثالثًا: إن التعارض بين القومية والدين غير وارد لدى جميع القوميات، ونحن نرفع شعارًا يقول: (لا تعارض بين الأوطان والأديان) وهو أمر يختلف بالنسبة للأيديولوجيات التى قد يخاصم بعضها الشعور الدينى ويعصف بالمؤسسة الروحية مثلما حدث فى سنوات الاتحاد السوفيتى السابق، وما زلنا نتذكر العبارة الماركسية التى تقول: (إن الدين أفيون الشعوب)، وهى عبارة غير صحيحة تضرب الأيديولوجية الماركسية فى مقتل، وها هى العودة إلى الكنيسة الأرثوذكسية فى أنحاء جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق إلى جانب الإسلام الحنيف فى جمهورياته ذات الأغلبية المسلمة، وقد أديت شخصيًا الصلاة فى مسجد موسكو الجديد ولم أرَ نظيرًا له من قبل فى روعة البناء ودقة التنظيم والخدمات اللوجستية المحيطة بذلك البناء الإسلامى الشامخ فى قلب العاصمة موسكو، وبذلك نرى للقومية ميزة تتفوق بها على الأيديولوجيات ونعنى بها التصالح الدينى الذى يسود أنحاء القومية الواحدة بخلاف الأمر بالنسبة للتفاوت الروحى داخل الأيديولوجية الواحدة.

إن خلاصة ما أهدف إليه هو أن أسجِّل العلاقة الجدلية بين القومية والأيديولوجية وكيف أن عصر القوميات الذى كان قد تراجع بفعل الانقسام الفكرى للعالم بعد الحرب العالمية الثانية قد عاد من جديد ليحدد الملامح البارزة فى الدولة القومية حتى ولو كانت قد رَزَحَت تحت غطاء أيديولوجية معينة لعدة عقود، فنحن ننتقل من عصر الأيديولوجيات إلى عصر القوميات، وتستدعى كلمة القومية مفهومًا خاصًا للدولة الوطنية التى نرى أنها هى القلعة الأخيرة للبناء الدولى فى عالمنا المعاصر، وسوف تظل للقوميات اليد الطولَى فى تحريك مسار الأمم وتدافع الشعوب مهما يَطُل أمد الأيديولوجية حتى ولو تغطت برداء دينى إلى حين، إن القومية وعاء إنسانى لا يمكن تحطيمه كل الوقت، وما زلت أكرر أن تجربة استمرار القوميات تحت الغطاء الأيديولوجى للاتحاد السوفيتى هى خير دليل على صحة القول الذى يرى أن الأيديولوجية يمكن أن تكون زائلة ولكن القومية تظل دائمًا هى الباقية، إننا كأمة عربية نبدو فى حالة تماسك – ولو ظاهرى – بمنطق قومى يعلو فوق غيره من الانتماءات والولاءات سواء كانت وطنية أو قومية.

فالاتحاد السوفيتى السابق قد ضم شَتات الأقاليم والدويلات بل والجمهوريات التى كانت تدور فى فلكه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، والتى تأكدت بالانتصار النسبى لموسكو فى ظل ظروف دولية وأوروبية سمحت بها نتائج الحرب العالمية الثانية، وقد تميز العصر الستالينى بقوة القبضة الروسية على الدول التى تنضوى تحت لواء الاتحاد، وقد أصبح من المتيقَن أن هذه الدول قد اندمجت فى الاتحاد السوفيتى اندماجًا عضويًا حتى تفكك ذلك الاتحاد فى مطلع تسعينيات القرن الماضى عندما وضعت الحرب العراقية الإيرانية أوزارها وسبق ذلك انسحاب القوات الروسية من أفغانستان، فأصبح الاتحاد السوفيتى بقبضته الحديدية أضعف من ذى قبل وخضعت وحدته المتماسكة لمحاولات متباينة بدءًا من حركة التضامن فى بولندا بالإضافة إلى الدور الذى باركه بابا الكنيسة الكاثوليكية – وهو مواطن بولندى أيضًا – فضلًا عن جهود الغرب متمثلة فى رؤية السيدة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانى التى جعلت تفكيك الاتحاد السوفيتى أحد أهدافها الكبرى، ونلاحظ أن تركيبة الاتحاد السوفيتى بجمهورياته المتعددة كانت من التشابك والتعقيد بحيث أصبحت شبكة النقل الجوى للجمهوريات السوفيتية المختلفة محكومة بالمرور على موسكو أو الانطلاق منها أو العودة إليها، وظل الأمر كذلك حتى بدأت (سياسة البروسترويكا) – أى الإصلاح – التى تبناها جورباتشوف ثم تلاه آخرون خرجوا من عباءة الاتحاد السوفيتى ليلحقوا بركب الديمقراطية والحرية الغربية كما تصوروا، فانهار حائط برلين وسقطت إلى حد كبير أسطورة النفوذ الروسى المتزايد، وتبدو قيمة هذا الذى نكتبه فى أننا نحاول التعرف على الأسباب الكامنة وراء النزاع الروسى الأوكرانى خصوصًا أن قيصر موسكو ضابط استخبارات له خبرة طويلة منذ أن كان رئيسًا للمحطة الروسية فى برلين الشرقية، ولقد شَعُرتُ مثل الكثيرين من أبناء العسكرية الروسية بأن الجمهوريات السوفيتية التى انفرط عقدها هى بمنزلة إهانة كبرى للدولة الأكبر وهى روسيا الاتحادية وتراكمت فى ذهنه ذكريات القياصرة وتاريخهم العريض خصوصًا بطرس الأكبر الذى يُعَد بمنزلة المثل الأعلى لفلاديمير بوتين، ولذلك فإننى على يقين من أن دخول القوات الروسية إلى أوكرانيا هو رد فعل لهذه المشاعر المكتومة والإحساس بالإهانة مما جرى للاتحاد السوفيتى وانهياره المفاجئ الذى كان من نتائجه تضاؤل مكانة روسيا بعد أن كانت إحدى القوتين الأعظم لتصبح دولة أوروبية كبرى يتحدث الكثيرون عن أنها أصبحت إحدى دول العالم الثالث ولكن بترسانة عسكرية قوية ما زالت تعطيها الزخم والقيمة فى المحافل العسكرية واللقاءات السياسية على المستوى الدولى.

وفى عام ٢٠١٥ تمكنت قوات بوتين من ضم جزيرة القرم وكانت حلمًا يداعب خيال الروس مرتبطًا برغبتهم فى تأمين حدود روسيا الاتحادية وإطلالتها على البحار وإمكاناتها المكتملة لاستعادة السيطرة على مناطق أخرى، فكانت أوكرانيا هى الفضاء الإقليمى المتاح أمام موسكو والذى سالت من أجله الدماء وتناثرت الأشلاء فى مواجهة عسكرية لم يتمكن أحد الطرفين من كسب معاركها وإعلان انتصاره حتى الآن، ولذلك فإننا نتوقع

أن تطول فترة المواجهة العسكرية وأن تتحول هذه المعارك إلى مستنقع آسن يستنزف القدرات الروسية ويؤدى إلى إضعاف دور موسكو لسنوات مقبلة وذلك هدف أمريكى غربى لا يخفى على أحد، ولعلنا نرصد الآن وفى إطار تحليل مباشر بعض الملاحظات حول تطورات وارتدادات الحرب الأوكرانية الروسية وموقف الدول العربية منها:

أولًا: يبدو أن توقعات الروس كانت مختلفة عما جرى بعد ذلك، فأظنهم كانوا يتوهمون أنها سوف تكون نزهة عسكرية سريعة يحقق فيها الجيش الروسى انتصارًا باهرًا ويضم بعض أطراف أوكرانيا لضمان سلامة حدوده ووحدته الإقليمية، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهى السفن وفوجئنا بحجم مقاومة القوات الأوكرانية جعلتها فى حالة تعادل عسكرى، والملاحظ هنا أن موضوع احتمال انضمام أوكرانيا لحلف الناتو كان جزءًا من التصور القادم، ولقد استقبلت العواصم العربية أنباء القتال على الجبهة الأوكرانية الروسية بكثير من القلق والحرج فى وقت واحد إذ إن معظم الدول العربية ترتبط بموسكو وكييف، فكان الحرج من تعذر اتخاذ موقف موحد باعتبار أن التدخل الروسى – من وجهة النظر الغربية – وتجاوزه الحدود يجعل ما جرى أنه بمنزلة غزو خارجى لدولة مستقلة مجاورة، بينما يرى الروس على الجانب الآخر أنهم يحافظون على حدودهم الإقليمية، ويقومون بعملية استباقية قبل أن تصبح قوات الناتو على حدودهم، وقد كرر بوتين أكثر من مرة أن الغرب المعادى هو الذى جاء إليه وأنه لم يذهب إليه تدليلًا على احتمالات النيات العدوانية على الأراضى الروسية بدعوى استبعاد أى عمل معاد من جانب الطرف الآخر، ولقد دارت الحرب وامتدت حتى الآن لما يقرب من عامين وكانت المفاجأة هى الصمود الأوكرانى والمقاومة الشديدة للهجوم الروسى على نحو أظن أنه لم يكن واردًا فى العقلية العسكرية الروسية والنسق العقيدى الفكرى لقادة الحرب عندما اتخذت قرار الحرب.

ثانيًا: تميز رد الفعل الغربى – الأوروبى والأمريكى – بحزمة ضخمة من العقوبات على روسيا الاتحادية وأظن أن ذلك كان من الأسباب المهمة للتصعيد فى المواجهة، إذ لم تكن الأوضاع السياسية والعسكرية بحاجة إلى هذا النوع من الاستفزاز الذى استقبله الروس بمزيد من التصعيد العسكرى ومواصلة القتال على كل الجبهات المشتركة، والغريب أن الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية قد تسابقت جميعًا فى تقديم أحدث الأسلحة وأكثر أنواع العتاد تطورًا للجانب الأوكرانى، ولعب رئيس الجمهورية من كييف العاصمة ومن جولات أخرى مخاطبًا البرلمانات الدولية بما فيها الكونجرس الأمريكى طالبًا مزيدًا من الدعم العسكرى والمعونة الاقتصادية لبلاده فى وقت جرى فيه تدمير محطات الكهرباء الأوكرانية وعانى النازحون من المدنيين ويلات الحرب على نحو كان الأوروبيون قد نسوه ولكن الذى جرى أعاد إلى أذهانهم ذكريات الحرب العالمية الأولى التى بدت الظروف حاليًا مشابهة لبعض فترات بدايتها منذ أكثر من مائة عام، فوقف الرئيس الأمريكى بايدن على الجانب الآخر من المحيط ليسكب مزيدًا من الزيت على النار ويسعى إلى دعم التحرك الغربى الأوكرانى على حساب روسيا المنهكة بعمليات عسكرية متصلة لا يسعى أحد الطرفين إلى إنهائها.

ثالثًا: مثلما تفاوتت مواقف الدول الأوروبية تجاه ذلك النزاع، فالموقف البريطانى أكثر تشددًا، والألمانى كان يمكن أن يكون أكثر اعتدالًا، والفرنسى يقوم بجولات دعائية بين الطرفين كذلك كان أيضًا انقسام المجتمع الدولى، فإيران داعمة لموسكو، والصين تتخذ موقفًا يتسم بالقبول العام لسياسة موسكو ولكنه يتحفظ نسبيًا على الغزو فى هذا التوقيت، بينما تلعب الهند على حبال الأزمة لتحقيق أكبر قدر من المكاسب الاقتصادية فى ظل ظروف الحرب وأزمة الطاقة، وعندما دخلت الدول العربية على الخط تأرجحت أدوارها بشكل ملحوظ، فموقف الإمارات يختلف بين دول الخليج، ولعلنا نشير هنا صراحة إلى صعوبة مواقف الدول عمومًا والشعور المستمر بالحرج نتيجة تعارض المصالح المتشابكة اقتصاديًا مع الارتباطات المعقدة سياسيًا على الجانب الآخر وأزمة الطاقة بأشكالها المختلفة إلى جانب حرب الحبوب الغذائية – إذا جاز التعبير – دورًا فى تزايد حدة الصراع على نحو ازدادت به إمكانات اتخاذ القرارات الواضحة بالدعم المطلق أو التأييد اللازم

لأحـد الجانبيـن، فإسـرائيل على سـبيل المثـال لديها لوبى كبير من اليهود ذوى الأصـل الروسى واليهود ذوى الأصـل الأوكرانى علـى الجانب الآخر لذلـك بدا دورها منـذ البدايـة دورًا موضـعيًا دون التـورط فـى مواقـف طويلـة المدى، وتلـك لعبة تجيدها إسـرائيل دائمًا وهى لعبـة الحركة السـريعة علـى الحبال المشـدودة فى أى أزمـة كبرى، ولنا أن نتسـاءل أليس صـحيحًا أن الحرب الروسـية – الأوكرانية قد خطفت الأضـواء من النضال الفلسـطينى الباسل ضـد الممارسات الإسـرائيلية غير الإنسـانية وغير المشـروعة والتى يمكن تصـنيفها على أنها إبادة ضد الإنسانية حاليًا ؟!.

إن الموقف العربى من الحرب الروسية –الأوكرانية قد حافظ إلى حـد كبيرعلى درجة من الحياد والتوازن واسـتخدم كارت الطاقة – خصوصًـا دول الخليج وفى مقدمتهـا المملكـة العربية السـعودية – لإبـراز أهمية الـدور العربـى فـى هـذا النـزاع الحالـى والمسـتمر الـذى يحمل فى طياته مخاطر تصـل إلى حـد التلويح باستخدام السلاح النووى.

العـــرب .. والحرب الروسية-الأوكرانية

■ د/مصطفى الفقى
الكاتب والمفكر السياسى، مساعد أول وزير الخارجية الأسبق

مستخلص :

استقبلت العواصم العربية أنباء القتال على الجبهة الأوكرانية الروسية بكثير من القلق والحرج فى وقت واحد إذ إن معظم الدول العربية ترتبط بموسكو وكييف، فكان الحرج من تعذر اتخاذ موقف موحد باعتبار أن التدخل الروسى - من وجهة النظر الغربية - وتجاوزه الحدود يجعل ما جرى أنه بمنزلة غزو خارجى لدولة مستقلة مجاورة، بينما يرى الروس على الجانب الآخر أنهم يحافظون على حدودهم الإقليمية، ويقومون بعملية استباقية قبل أن تصبح قوات الناتو على حدودهم، وقد كرر بوتين أكثر من مرة أن الغرب المعادى هو الذى جاء إليه وأنه لم يذهب إليه تدليلًا على احتمالات النيات العدوانية على الأراضى الروسية بدعوى استبعاد أى عمل معاد من جانب الطرف الآخر، ولقد دارت الحرب وامتدت حتى الآن، وكانت المفاجأة هى الصمود الأوكرانى والمقاومة الشديدة للهجوم الروسى على نحو أظن أنه لم يكن واردًا فى العقلية العسكرية الروسية والنسق العقيدى الفكرى لقادة الحرب عندما اتخذت قرار الحرب.

ومن الأهمية دراسة وتحليل الموقف العربى من الحرب الروسية - الأوكرانية والذى حافظ إلى حد كبير على درجة من الحياد والتوازن واستخدم كارت الطاقة - خصوصًا دول الخليج وفى مقدمتها المملكة العربية السعودية - لإبراز أهمية الدور العربى فى هذا النزاع الحالى والمستمر الذى يحمل فى طياته مخاطر تصل إلى حد التلويح باستخدام السلاح النووى.

الكلمات المفتاحية : العرب، الحرب الروسية الأكرانية، الموقف العربى

The Arabs.. and the Russian-Ukrainian War

■ *Dr. Mustafa El-Feki*
The Writer and Political Thinker, Former First Assistant to the Minister of Foreign affairs

Abstract:

Arab capitals received news of the fighting on the Ukrainian-Russian front with a lot of anxiety and embarrassment at the same time, as most of the Arab countries are linked to Moscow and Kiev. The embarrassment was due to the inability to take a unified position, considering that the Russian intervention - from the Western point of view - and its crossing of borders makes what happened tantamount to an invasion. External to a neighboring independent country, while the Russians on the other side see that they are preserving their territorial borders and carrying out a pre-emptive operation before NATO forces become on their borders. It is important to study and analyze the Arab position on the Russian-Ukrainian war, which has largely maintained a degree of neutrality and balance and used the energy card - especially the Gulf states, most notably the Kingdom of Saudi Arabia - to highlight the importance of the Arab role in this current and ongoing conflict, which carries with it risks amounting to threatening the use of nuclear weapons.

Keywords: Arabs, Russian-Ukrainian war, the Arab position